

فسيفساء تبسة، سوق اهراس و قالمة

الياس عريفي

ملخص

إنّ مجمل المقاطعات التي شكّلت الأمبراطورية الرومانية، كانت مناطق شمال إفريقيا و بدون شك الأكثر التي وفرت لنا العديد من اللوحات الفسيفسائية. إنّ الدراسات التي أقيمت على اللوحات الفسيفسائية بالجزائر، كانت محصورة في اللوحات المعروفة و الأكثر جذابة، نذكر منها جرد فسيفساء تيمقاد التي قامت به الباحثة سوزان جارمان Suzanne Germain سنة 1965، جرد فسيفساء متحف جميلة للباحثة بلونشار ليمي Blanchard Lemée سنة 1975، كاتالوج فسيفساء مدينة شرشال للباحثة صباح فردي في رسالة دكتوراه سنة 2005.

إنطلاقاً من هذا المنظور، ارتأينا أن ندرس فسيفساء منطقة تبسة التي خصّصنا فيها مجموعة من البلاطات الفسيفسائية المتواجدة في المنزل القديم و هي مازالت بالموقع، ثم مجموعة أخرى من الفسيفساء المتواجدة في المنزل الشمالي و آخر بجنوب الحيّ السكني بموقع مداوروش، أمّا المجموعة الأخيرة فهي عبارة عن فسيفساء معروضة بمتحف قالمة.

لقد كانت تساؤلاتنا عديدة و مختلفة في مجال الفسيفساء عامة، لكن سوف نخصّ إشكالتنا على الفن الفسيفسائي الذي انتشر في المناطق المدروسة و منه، هل فعلاً نحن على دراية ما تحتويه مواقعنا الأثرية من فسيفساء التي مازالت محفوظة في المواقع الأثرية؟ هل هذه الأخيرة تمّ جردها و تدوينها؟ هل هناك فن فسيفسائي محض يخصّ المناطق الجزائرية التابعة لإفريقيا البروقنصلية؟ أم أنّ هذا الفن هو بمثابة إستمرارية و شبيهه بالفن الفسيفسائي الذي نجده في مقاطعة نوميديا أو في موريطانيا القيصرية؟ هل هناك ورشة محلية ثابتة بالمنطقة أم ورشة متنقلة؟

فسيفساء المنزل القديم في تبسة كانت مثالا حياً لدراسة الفسيفساء التي مازالت في الموقع. المنزل ذات مساحة إجمالية تصل إلى 462.27م²، يشمل بلاطات فسيفسائية تصل مساحتها الإجمالية إلى 99.42م²، هذه المساحة هي مجموع خمس بلاطات فسيفسائية موزّعة عبر خمس قاعات تشمل على أشكال و زخارف مختلفة.

من خلال ملاحظتنا للألوان المستعملة في اللوحات الفسيفسائية التي تزخرف المنزل القديم، التمسنا خاصية استعمال الألوان التي تتكرّر و تعيد نفسها من لوحة لأخرى من أحمر و أحمر قرميدي، على العموم إنّ الألوان المستعملة هي بمثابة ألوان محدّدة تتكرر من لوحة لأخرى، واختيار الفنّان لمثل هذه الألوان أدّى بإعطاء بعد داكن عند النظر فيها.

أمّا من حيث المواضيع و الأشكال الزخرفية، فلقد استعمل الفنّان أشكالاً هندسية و نباتية تختلف من لوحة لأخرى، هذا ما يدل عن تنوع الأشكال التي كانت كثيرة الإستعمال في تلك الفترة خاصة الفترة القديمة المتأخرة.

و عليه و بعد دراسة البلاطات الفسيفسائية للمنزل القديم بتبسة، يسمح لنا أن نوّكد بأنّ هذه المجموعة معاصرة مع بعضها حيث تشكّل مجموعة متجانسة و متلاحمة، كما يبقى عنصر المعطيات العلمية التي تقدّمها الحفريات في التأريخ غائبا بالنسبة لهذه الفسيفساء، يبقى تأريخها المقترح بعد دراسة الأشكال و العناصر الزخرفية المستعملة، إلى الفترة القديمة المتأخرة التي تلاقي القرن الخامس ميلادي.

إنّ اللوحات الفسيفسائية التي حصرناها بموقع مادوروس، ماهي سوى عيّنات استطعنا عن إثرها إعطاء بعض تفاصيل مضمونها من مواضيع زخرفية و أشكال هندسية، إلى جانب تأكّدنا من مكان تواجدها (الحمامات و المنازل) و لقد كان اهتمامنا لتلك اللوحات التي هي شبه كاملة (كالتالي وجدت بالمنزل الشمالي)، أمّا الباقية معظمها قد اندثر أو ما بقي منها سوى بعض المكعبات التي يستحيل علينا أن نقوم حتى بوصفها و عرض مكوّناتها.

و الشيء الملاحظ من خلال هذه النماذج من اللوحات الفسيفسائية هو ذلك الاختلاف بين اللوحات التي تزخرف أرضيات المنزل الشمالي و فسيفساء المنزل الجنوبي.

بالنسبة للأرضيات الفسيفسائية المتواجدة بالمنزل الشمالي، خاصة فسيفساء الرواق الجنوبي للمنزل، نجد الزخرفة فيها مختلفة من حيث الأشكال الهندسية التي تعمّ حقل الفسيفساء ذات تشكيلة متماسكة و متوازية، خاصة لما نلاحظ مجموعة المربّعات و المعيّنات ذات المقاسات الموحّدة تقريبا.

أمّا بالنسبة للألوان، مهما كانت طريقة الأداء تبقى هذه الأخيرة متقنة، خاصية الأشكال الزخرفية معروفة و مستعملة في جدول الزخارف الهندسية المتعامل بها، نجدها في العديد من اللوحات الفسيفسائية واستعمالها ليس محدّد.

ما زاد للفسيفساء بهاءا هي الرصيلة في إطار مزخرف بعقد ذات ضفيرات و ما تحتويه من ملامح و سمات جعل منها الفنان صورة حيّة، استعملت ألوانا متجانسة حيّة لإبراز لون البشرة مثلا و حتى الظلّ، كما استعمل مواد ثمينة في تمثيل التاج الذي تحمله فوق رأسها من أوراق الكرم بمادة عجينة الزجاج .Patte de verre

أمّا فيما يخص التقنية المستعملة في إنجاز هذا الجزء من الزخرفة، فهي تقنية الفارميكولاتوم Vermiculatum، التقنية التي تستوجب قطع المكعبات بأحجام صغيرة حتى نحصل على مكعبات تصل من 2 إلى 3 مم.

أمّا بالنسبة للأرضية الفسيفسائية التي تشكل قاعة الإستقبال هي الأخرى تدخل في إطار ذات المواضيع التصويرية، بحيث مثّل فيها الفنان مواضيع لحيوانات التي نجدها في معظم الأحيان برفقة الإنسان في حياته اليومية من دواجن (مثله الفنان بالديك) أو البط و حتى الطاووس، استخدم فيها تقنية النيسيلاتوم Tesselatum، و كأنّ الفنان أراد أن يستعمل ألوانا مختلفة عن جارتها و ذلك ليبين وظيفة كلّ قاعة حسب

أهميتها، فالألوان المستعملة في فسيفساء قاعة الإستقبال ليست متنوعة بقدر ما هي موحّدة بين الأصفر، الأحمر و الرمادي فقط، ممّا أعطى للوحة خلفية داكنة اللون.

بالنسبة للمنزل الجنوبي، لاحظنا اختلاف و تنوع في الحواف المتواجدة بالرواقين الشمالي و الشرقي بالمنزل، ألوانها قاتمة من رمادي، أحمر و أصفر، الأمر الذي شدّ انتباهنا هو الطريقة التي قام بتأديتها من الأشكال الهندسية التي كانت بطريقة غير منتظمة، خطوط الأشكال غير مستقيمة، الدوائر شبه منحرفة حتى الأشكال النجمية.

ما نستنتجه من خلال دراستنا لتلك الأرضيات الفسيفسائية التي تزخرف قاعات المنزلين اللذان قمنا باختيارهما، هو ذلك الاختلاف في استعمال المواضيع و كيفية أدائها. و السبب في هذا الاختلاف يعود بالدرجة الأولى للفترات التاريخية المتفاوتة التي مرّت منذ نشأة المدينة.

تحت هذه المعطيات التاريخية، و في غياب أية معطيات مادية و أثرية لتأريخ البلاطات الفسيفسائية للمنزل الشمالي، بموجب الأخذ بعين الإعتبار التقنية و المواد المستعملة، اقترحنا تأريخ اللوحة إلى الفترة القديمة المتأخرة بداية من القرن الرابع ميلادي، أمّا بالنسبة للبلاطات الفسيفسائية للمنزل الجنوبي و نظرا للتعديلات التي أجريت عليه في فترات لاحقة من جهة، و من جهة أخرى التقنية المستعملة في تشكيل مجموعة الزخارف الهندسية غير المنتظمة، اقترحنا تأريخها إلى الفترة القديمة المتأخرة ابتداء من النصف الثاني للقرن الخامس.

بالنسبة للمجموعة الفسيفسائية المعروضة بمتحف قالمة تتكوّن من إحدى (11) عشر فسيفساء، واحدة منها فقط مصدرها من قالمة، أمّا البقية فهي من موقع خميسة.

ما لاحظناه بالنسبة للألوان التي التمسنا فيها عنصر التكرار و تعيد نفسها من فسيفساء لأخرى، هذا بالنسبة للأشكال الهندسية و النباتية، فاللون الرمادي مثلا، نجده يتكرّر، متبوعا باللون الأحمر.

كما أنّ هناك خاصية بالنسبة للألوان النادرة التي استعملت في اللوحة الفسيفسائية التي تمثّل انتصار فينوس، هذه الخاصية، تتمثّل في استعمال لبعض الحجارة الكريمة بألوان راقية من الأصفر المذهب و كذى استعمال الأزرق القاتم و الفاتح، و هذا و إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ الفنّان قد أعطى أهمية كبيرة لهذه اللوحة و ما تحويه من موضوع إيكولوجرافي المتمثّل في انتصار الإلهة فينوس.

لقد وفّرت لنا المجموعة الفسيفسائية المعروضة في متحف قالمة على أشكال زخرفية هندسية مدوّنة في كاتالوج الديكور الهندسي للفسيفساء الرومانية الذي من خلاله استطعنا أن نعرف نوع الديكور ومكوناته.

و عليه، بعد دراسة و تحليل المجموعة الفسيفسائية المعروضة بمتحف قالمة، و من خلال الأشكال الزخرفية و كذى استعمال الألوان، و دراسة مقارنة لبعض الفسيفساء لمنطقة تونس، اقترحنا تأريخ هذه

المجموعة الفسيفسائية إلى أواخر القرن الرابع و بداية القرن الخامس بعد الميلاد. (IV, V s. ap.jc) بعد الدراسة التحليلية بمقارنة الأشكال و المواضيع الزخرفية الفسيفسائية لمنطقة تبسة و سوق اهراس و قالمة، نستطيع القول أنّ المواضيع المستعملة حتى من ناحية النمط التشكيلي تتكرّر من لوحة لأخرى، و هذا يدلّ على أنّ تشكيلة اللوحات الفسيفسائية خاصة محظّة تتميز بها فسيفساء مقاطعة إفريقيقا البروقنصلية للمناطق الجزائرية، تبسة، مادوروس و قالمة، هذا من جهة، و من جهة أخرى، الجانب الزمني التي تنتمي

إليه المجموعة الفسيفسائية لهذه المناطق و التي تعود إلى الفترة القديمة المتأخرة، أي منذ بداية القرن الرابع إلى نهايته و التي تدوم حتى نهاية القرن الخامس ميلادي.

تلك هي نقاط التشابه التي تميزت بها المجموعة الفسيفسائية للمناطق التي درسناها من حيث المواضيع و الأشكال الزخرفية و صولا إلى تأريخها، كما تمكنا أيضا من معرفة توزيع وانتشار هذه الفسيفساء في الجانب العددي لكل منطقة، إثنان و عشرون (22) فسيفساء تمّ جردها منها، خمس (05) لوحات فسيفسائية تمّ التعرف عنها و أزيل الستار عليها بالمنزل القديم بتبسة، ناهيك عن المجموعة الفسيفسائية التي قمنا بدراستها و جردها في رسالة الماجستير و التي عددها ثمان و خمسون لوحة (58) فسيفسائية بنفس المنطقة، بالإضافة إلى خمس (05) لوحات فسيفسائية تمّ جردها و دراستها التابعة للمنزلين الشمالي و الجنوبي بموقع مداوروش، هذا بالإضافة إلى فسيفساء متحف قالمة والتي عددها إحدى عشر (11) فسيفساء.